روائع تراث الزَّيديّة

كتاب التّوفيق والتّسْديد

للإمام المهدي لدين الله الحسين بن القاسم العَياني

عليهما السّلام (ت ٤٠٤هـ)

مُنتزع من مَجمُوع كُتبه ورسائِله

تحقيق

إبراهيم يحيى الدّرسي

منشورات مركز أهل البيت (ع) للدراسات الإسلامية

كتاب التوفيق والتسديد[1]

وقال -عَلَيْه السَّلام-: في كتاب التوفيق والتسديد والآداب

[معنى التوفيق والتسديد]

فأول ما سألت عنه التوفيق والتسديد وما حقيقتهما ومعناهما؟

والجواب في ذلك: أن التوفيق والتسديد، هما العون من الله والتأييد، فمن أعانه الله على طاعته ووفقه لمرضاته، فقد وفقه لهداه، وسدده لسبيل تقواه، ولن يوفق الله أبداً من عصاه، وأعرض عن الله واتبع هواه.

ثم يقال لمن زعم أن الله وفق العصاة قبل توبتهم، وسددهم في حال معصيتهم: أخبرنا أيها الجاهل عن التوفيق والتسديد، والعون من الله والتأييد، أهما مكافأة للعبد على طاعته؟ أم عون للفاسق على معصيته، أم تأديب من الله على غفلته لما علم من إنابته ورجعته؟

فإن قال: إنهما زيادة من الله للموقنين، ومكافأة لعباده المؤمنين، فقد أصاب في قوله.

..إلى قوله: وأصل التوفيق مأخوذ من الموافقة للصواب، وموافقة الحق في جميع الأسباب، وكذلك التسديد مأخوذ من السداد، وأصله الحق والصدق والرشاد.

..إلى قوله: واعلم يا أخي زادك الله علماً ونجانا وإياك من العمى أن التوفيق هو التسديد، وهو الهدى من الله والتأييد، وهو زيادة من الله للمهتدين، وإرشاد منه لعباده الراشدين، فمن قبل عن الله الهدى، وشكره على نعمة الإبتداء، زاده هدى إلى هداه، وبصره وآتاه تقواه.

وأول توفيق الله وتسديده، وعونه للمؤمنين وتأييده، أن يبصرهم معالم دينهم، ويزيدهم في علمهم ويقينهم، ويعينهم بلطفه على جهاد أنفسهم.

وأول خذلان الله لأعدائه تركه لهم على ضلالهم، واستدراجه إياهم بإغفالهم، فإذا

---

[1] - من النسخة (ج).

خذلهم بالترك والإغفال، لم يصيبوا رشداً في حال من الأحوال، و لم يزالوا مرتطمين في الضلال إلى آخره.

[معنى الشجاعة والجبن، وهل هما جبلّة أو اكتساب]

وسألت عن الشجاعة والجبن أهما من الله تركيب في الأجسام أم هما اكتساب من العباد؟

واعلم يا أخي أن الشجاعة على وجهين ، وكذلك الجبن أيضاً على معنيين ، فمن ذلك شجاعة المتعبدين، وشجاعة من لا يعقل من المخلوقين.

فأما شجاعة البهائم: فإلهام وتركيب من رب العالمين.

وأما شجاعة المكلفين، وإقدامهم على ما يكرهون: فهي صبر منهم لدفع ما يخافون، واجتلاب منافع ما يريدون، ولا يتم ذلك لهم إلا بما ركب الله من الإستطاعة فيهم، ولأولياء الله من الصبر والإجتهاد، ما ليس تجهله العباد، وذلك ليقينهم بالمعاد، وزهدهم في الإقامة والإخلاد.

وأما جبن البهائم وذلها: فهو محنة من الله لها، ونعمة منه لغيرها، ليثيبها على ذلك عند حشرها، وبعثها يوم القيامة ونشرها.

وأما جبن الآدميين؛ فلا يخلو من أحد وجهين:

إما أن يكون لعلة مرض أذلهم، ومنعهم من الجهاد وأملهم، وأضعفهم عن ذلك وأكلّهم.

وإما أن يكون ذلك زهداً منهم في الجهاد، وميلاً إلى الراحة والرقاد.

فإن كان ذلك لعلة مانعة، ومحنة عن الجهاد قاطعة، فلا يكلف الله سبحانه خلقه ما لا يستطيعون، ولا يسألهم ما لا يجدون؛ لأنه عز وجل أرأف وأرحم بهم من أمهاتهم وآبائهم.

وإن كان ذلك منهم ميلاً إلى الفساد، وكراهية منهم لحر الجلاد، وصيانة بالأهل والأولاد، فسيفارقون صاغرين، ويرتحلون عنه مأزورين.

[معنى السخرية]

وسألت عن قوله الله سبحانه: ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف:٣٢]؟

والجواب في ذلك: أن الله سبحانه سخر بعضهم لبعض تسخيراً، وجعل في ذلك حكمة وتدبيراً، ولولا تسخيره لما عاش ضعيفهم مع قويهم، ولما انتفع فقيرهم بغنيهم.

[في تأثيرات الرياح هل هي من الله أم من الرياح]

وسألت عن الرياح تهب على إنسان فتسقطه في بئر أو تهدم عليه جداراً ، فيموت أذلك من الله أم هو من الرياح؟

والجواب في ذلك: أنه لا يخلو:

إما أن يكون تعرض لذلك وأهلك نفسه.

وإما أن يكون ذلك بغير كسبه؛ فإن تعرض للهلكة وألقى بنفسه إليها ، فقد أثم في نفسه واعتدى عليها، وإن كان لم يتعرض بشيء من ذلك حتى هجم عليه، وورد بغير اكتساب إليه؛ فذلك من الله سبحانه صنع وتدبير، وتهلكة لعبده وتدمير؛ فأما الجدار والرياح فلا ينسب الفعل إليهما، ولا يقال به في سبب من الأسباب عليهما.

[في ما يتلفه البرَد]

وسألت عن الغيث والبَرَد إذا تلف منهما تالف ومات بأسبابهما؟

والجواب في ذلك: أن الله أتلفه بالبَرَد والمطر وأماته، وأذهب عمره بذلك وحياته؛ فأما الغيث والبرد فلا يعيان ولا يعقلان، ولا يقتلان أحداً ولا ينشران، ولكن أمات بهما وأحيا، ودبر بهما وهيأ، وجعل فيهما خيراً وشرا، وركب فيهما نفعاً كامناً وضراً.

[حكم من سافر إلى بلد السدم]

وسألت عن الرجل أمأثوم إذا سافر إلى بلد السدم؟

والجواب أنه إن تعمد بذلك تلف نفسه فقد أثم، وإنما السدم طبيعة حارة من جنس النار يقوى بشكلها، وتبطل بخلاف أمثالها، وإنما ركب الله أجسام العباد على أربع طبائع مختلفة، متضادة غير مؤتلفة وهي: الحر والبرد، واليبس والرطوبة، وكل طبيعة من هذه

الأربع تقوى بشكلها، وتبطل بضدها، فكل حار من الأغذية يقوي الحرارة التي في الجسد وينميها، وكل بارد من الأغذية يبطل الحرارة وينفيها، ويقمعها أبداً ويطفيها، وكذلك روي عن سيدنا رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وآله-.

وأما ما روي عنه من المقال، بأن بلد الوباء يقرب في الآجال، فهذا فاسد من الرواية والمقال، ولكن يمكن أن يكون نهى عن بلد الوبا، لتعب الحر وأعراضه، ونكد عواقب السدم وأمراضه.

فأما الأجل فلا يقربه إلا الله عز وجل أو ظلم العباد، وتفريقهم بين الأرواح والأجساد؛ لأن الله سبحانه طبع الروح والجسم على الاجتماع والافتراق عند التغير والانقطاع، فإذا تغير الجسد خرج الروح بعد قراره وثباته، ومات الجسم وهلك بعد حياته، رحمة منه سبحانه للمخلوقين، وتنبيهاً بالضعف للغافلين، لينظروا إلى ضعف أنفسهم وأجسادهم، فيزهدوا في الدنيا باجتهادهم، ويقبلوا على طاعة ربهم، ويستعدوا للموت قبل حلوله بهم، حتى تخرج أنفسهم على أيقن اليقين، ويقفوا بين يدي الله على الحق المبين، ويسلموا بذلك من صفقة الحظ الغبين.

[في المقتول هل أجله محتوم أومخروم]

وسألت عن المقتول هل بقي من عمره شيء أم قد اخترم القاتل أجله قبل وقته؟

واعلم أن الله عز وجل خلق الحياة خلقاً وأوجدها إيجاداً فإن شاء قبض الأرواح وإن شاء تركها؛ فأما المقتول فقد علم بقتله، و لم يجعل له أجلاً بعينه، ولو حتم له أجلاً موقوتاً لبقي إلى وقته، ولما قدر أحد من المخلوقين على قتله[1].

---

[1] - للمقتول أجلان :

أحدهما: حقيقي ، وهو الذي ذكره الإمام -عَلَيْه السَّلام- وشرحه .

والثاني: أجل مقدر وهذا لم يتحدث عنه الإمام -عَلَيْه السَّلام- ، وهذا الأجل مشروط بالسلامة من القتل أو مشروط بالأخذ بأسباب السلامة ، فيقال في هذا إنه لو سلم من القتل لعاش أو إنه لو أخذ =

[في إلهام الله للهوام]

وسألت عن رجل كان يسير في طريق فلدغته حية أو غيرها من الهوام؟ وعن الجراد وأكلها للزرع أذلك من الله بإلهام أم هو من أنفس الهوام؟

والجواب في ذلك: أن الله عز وجل ألهم جميع الدواب والأنعام اجتلاب منافعها ودفع مهالكها، فإن كانت هذه العجم قصدت الملدوغ قصداً، وتعمدت هلاكه عمداً، فذلك بإلهام الله ومشيئته.

وإن كان هو الذي تعرض لها فذلك بإرادته، لأنه قصد شراً كامناً بمهجته، لأن الله عز وجل قد ألهمها نفي ما يهجم عليها، وإهلاك ما قصد إليها.

[هل مع البهائم عقول أم لا؟]

وسألت عن البهائم هل معها عقول تعقل بها وتميز ما يضرها وينفعها؟

والجواب في ذلك: أن العقول لا تنسب إلا إلى المتعبدين، ومن كان من المهتدين والضالين، ولكن الله ألهم أنفس البهائم إلهاماً، وجعل ذلك لحياتهن قواماً[1].

وسألت عن الأمراض، وما ينال الآدميين من وصب الأعراض، وذلك من الله لا شريك له وهو الذي صنع ذلك وجعله، وركبه في الأجسام ونزله.

بأسباب السلامة لسلم من الهلاك .

ودليل هذا الأجل المقدر قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا(٨٠)﴾ [الكهف]، وقوله تعالى حكاية عن نوح -عَلَيْه السَّلام-: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ(٣)يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [نوح]. تمت من السيد العلامة/ محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله تعالى.

(١) - يريد -عَلَيْه السَّلام- أن العقول من خصائص المكلفين من الملائكة والجن والإنس لأن التكليف لا يتم إلا بالعقول أما البهائم فليست من أهل العقول وإنما جعل الله تعالى لها إلهامات وإدراكات تهتدي بها إلى منافعها واجتناب مضارها. تمت من السيد العلامة/ محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله تعالى.

وأما ما يستعمله الناس من الطبائع فليس يقدرون على طبعه، وإنما يقدرون على تناوله وجمعه، وليس للعباد فعل في هذه السموم غير الحركات، ولا ينسب قتل السم إلى الجمادات، وإنما هو محنة وهلكة من الهلكات، وإنما فعل العباد تفريق وجمع، ورفع ووضع، وصلة وقطع، وطاعة ومعصية، وسكون وحركة، وضمير ونية؛ فأما الطبائع فهي من فعل الله وتدبيره، وحكمته وتقديره، ولا ينسب الفعل إليها ولا إلى جامعها، ولا يكون ذلك إلا من فعل صانعها.

[هل الجنون من الله أم من الجن؟]

وسألت عن المرض الذي يسمى الجنون أهو من الجن أم هو فعل من الله في المجنون؟

واعلم يا أخي أكرمك الله أن الجنون هو ما أجن العقل وستره، وحال بينه وبين المعقولات وغمره، ولا يكون ذلك إلا بملابسة العلل ودخولها، وجولانها في القلوب وحلولها، والجان فلا يتهيأ له الدخول، ولا تمكنه الملابسة والحلول.

[معنى المس في آية الربا]

وسألت عن قول الله مولانا الواحد الجليل وما ذكر في أهل الربا من القول: ﴿**الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ**﴾ [البقرة:٢٧٥]؟

وهذا مثل ضربه الله لمن يعمل بالربا بالموسوس وخبله، إذ لم ينتفع و لم يزدجر عن الحرام بما ركب الله من عقله، والمسّ فهو الجنون، وإنما خاطبهم الله بما يعرفون؛ لأنهم إذا رأوا مجنوناً سموه مخبوطاً منقوصاً، وكان بذلك الاسم عندهم مخصوصاً.

[في العين هل لها تأثير أم لا؟]

وسألت أكرمك الله عن العين وما يعتقد العوام من إصابتها للبهائم الحسان والأشجار المثمرة وغير ذلك.

واعلم يا أخي أن ذلك لا يصح عند من يعقل، ولا يقول بذلك من الناس إلا من

يجهل، ولكنه ربما وافق أمر الله نظرهم، فيتوهمون أن ذلك منهم[١].

وليس يخلو نظرهم من أن يكون انتقل منه جسم إلى الشيء المعجب فلابسه، ووصل إليه ولامسه، وإما أن يكون لم يصل شيء منه إليه، و لم يقع مما توهموا عليه.

فإن قالوا: إنه خرج من أنفسهم وأعيانهم جسم أمرضه، ووصل إليه وعارضه؛ فهذا الجسم لا يخلو من أن يكون لطيفاً ، أو يكون عند خروجه كثيفاً.

فإن زعموا أنه خرج من أعيانهم وأنفسهم جسم كثيف أوجعه، وغلب الشيء المعجب وصرعه، أو أيبس الشجر وقطعه؛ فهذا محال لأن العين والنسمة ضعيفان، وهما مع ضعفهما لطيفان، وما كان من الأشياء كلها ضعيفاً، وكان مع ضعفه لطيفاً، فيستحيل أن يخرج منه جسم كثيف.

وإن قالوا: بل خرج منه جسم لطيف فليس يخرج من العين والنسمة إلا ما هو ألطف وأقل منهما وأضعف، وما كان ألطف من اللطيف ، وأقل وأضعف من القليل الضعيف، لم يذهب في الأهوية إلا ضلالاً، وكان كل ما ينسب إليه محالاً.

وقد علم كل عاقل أنصف عقله، و لم يتبع جنونه وجهله، أن ذلك لو صح لمدعيه، لما ترك على وجه الأرض أحداً يعاديه، وقد رأينا بالمشاهدة أعداءه أحسن حالاً، وأكثر منه ولداً ومالاً، فلو كان صادقاً في ما يدعي من المحال، وينتحل عند الرعاع والجهال، لما ترك أعداءه يوماً واحداً ولما ترك لهم مالاً ولا ولداً ولا أبقى في إلحاح النظر جهداً.

وقد أجمعوا على صحة هذا السبب غاية الإجماع، ولكن لا يلتفت إلى إجماع الرعاع،

---

[١] - قد جاء في العين أخبار وآثار ومنه الدعاء : ((وأعوذ بك من شر كل عين ....))، وقد جاء في القرآن ما يدل على أن الارتياح والإعجاب في حال نظر الناظرين إلى ما عند الإنسان من فضل الله سبب لزوال النعمة وفسادها وذلك في قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا...﴾ [الكهف:٣٢] إلى قوله : ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ...﴾ [الكهف:٣٩]. تمت من السيد العلامة/ محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله تعالى.

لأن همج الناس لا يفرقون بين العقول والأوهام، فمن هذا الوجه لا يتكل على إجماع الطغام، ولو أجمعوا على شيء يمكن في المعقول، لما صدقناهم لما هم عليه من الغفول، فكيف بتصديقهم في المستحيل، وما لا يمكن أبداً في العقول.

[بيان العقل ومعناه]

وسألت عن العقل في ذاته: وهو عرض ركبه الله في قلوب المتعبدين، وجعله حجة على المكلفين، والعقل والنفس ضدان، وهما في القلوب متعلقان، والجسم والروح لهما موضعان، وأحقهما بحمل النفس والعقل الروح، لأن العقل والنفس روحانيان وهما في ذاتهما عرضان، والنفس تنقسم على أقسام أضداد، فمنها داع إلى الخير والرشاد، ومنها ما يدعو إلى الغي والفساد.

والعقل قسم واحد يقين، وأمين ناصح شاهد مبين.

فأما النفس فمنها الذكر والنسيان ، وهما في القلب ضدان متنافيان.

وقسم ثالث هو الشهوات للذات.

والرابع ضد الشهوة وهو الكراهية للمكروهات.

والخامس الأمان وهو السكون والاطمئنان.

والسادس ضده وهو الخوف.

والسابع من الأقسام ما يجول في النفوس من الظنون والأوهام.

والثامن ضد الوهم وهو اليقين والحق الواضح المبين.

والتاسع هو السرور والفرح.

والعاشر ضده وهو الغم والترح.

والحادي عشر الرجاء والطمع.

والثاني عشر ضده وهو اليأس.

والثالث عشر الرحمة.

والرابع عشر ضدها وهي القسوة.

وكثير من هذه الأقسام يوجد بالمشاهدة في نفس الأنعام، ولكنها تنقسم في قلوب أهل العقول على أقسام، وتخرج على وجوه نخشى فيها الإمعان في الكلام، ولا فائدة لأحد إليها من الأنام.

والنفس فهي تغلب القلوب أطواراً، وتغيره حالاً بعد حال مراراً، فمرة تدعوه إلى الصالحات، ومرة تدعوه إلى المهلكات، ومرة تدعوه إلى العقل، ومرة تدعوه إلى الجنون والجهل.

وأصل الجنون وفرعه خلق هذه الأقسام بغير عقل ولا زمام، وإذا كان العقل مع هذه الأسباب سترها، وعلا نورُه عليها فغمرها، وإذا خلت الأقسام بأنفسها من العقل، جالت في أنواع القبائح والجهل، فنستمتع الله بما وهب لنا من العقول، والحمد لله الواحد الجليل.

ثم نقول من بعد: إن الروح محل لهذه الأقسام، وأنه جسم لا يدرى ما هو من الأجسام، لأن الروح ينتقل من الموضع إلى غيره، وذلك بلطف الله وتدبيره، ولا يجوز الانتقال إلا على الأجسام وما ركب الله من الأجرام.

[كيفية مخاطبة إبليس لآدم ووسوسته في الصدور]

وسألت عن كلام إبليس اللعين ومخاطبته لسيدنا آدم وغيره من النبيين -صلوات الله عليهم أجمعين- وقد حكى الله عز وجل في القرآن ما قد سمعت من قسمه لآدم وزوجه إنه لهما من الناصحين ولا يكون القسم والحلف إلا بالكلام، ولا يجوز أن يسمى القسم خاطر وهو من الأوهام، وإذا أقسم لهما فقد سمعاه، وروي في ذلك أنهما صدقاه، وحسبا أن عدو الله لا يجتري على اليمين كاذباً لما داخلهما من اليقين بالله ذي الجلال، والتوقير لذكر الله عن الكذب والمحال، حتى ظننا -صلوات الله عليهما- أن في قلب عدو الله من الخشية كالذي في قلوبهما، وإنما اغترا في حال حداثتهما وقلة تدبيرهما وتجربتهما، فلما حكمهما طول الزمان، وكثرة التجارب للأفنان، حَذرًا من الغرر والجهل، واستقاما على الدين والعقل، حتى قبضهما الله إلى رحمته، وتوفاهما على طاعته.

وأما سائر الناس، وما يعارضهم من الوسواس، فأكثر ذلك من النفوس وجولانها،

وتقلب القلوب وخطرانها، وقد روي أن إبليس اللعين ربما قارب الإنسان في حال فكره، وربما قوى طبع النفس بما هو من شكله، كما يقوي الحر من النار بزيادة مثله.

وقيل أيضاً إنه كان يخاطب الناس في أول الزمان، ويدعوهم إلى العصيان، ولسنا نبالي أدعاهم أم لم يدعهم، وسواء عندنا أكلمهم أم لم يكلمهم؛ لأن ذلك لا يوجب في دين الله فساداً، ولا يضر من أولياء الله أحداً.

[في من أطاع ثم عصى ثم تاب هل يرجع له الثواب الأول]

وسألت عن رجل أطاع الله وقتاً ثم عصاه ثم تاب إلى الله ومات على تقواه هل يثاب على الطاعة التي كفر بعدها أم تبطل ولا يثاب عليها؟

والجواب أنه لا يثاب على شيء قد أبطله، وأفسده عبثاً وعطلّه، ولكن الله قد غفر له، وتاب عليه عند الرجعة وقَبِلَه[1].

[فيمن تخلى للطاعة وترك الدنيا]

وسألت عن رجل عسر عليه الإكتساب وأراد أن يتفقه في الدين، ويقبل على طلب الحق واليقين، وأعرض عن المنازل والزوجات، فلم يبن لنفسه منزلاً، ولم يتخذ من الزوجات أهلاً، أيأثم في ترك ذلك أم لا؟

---

[1] - هذه المسألة فيها خلاف بين أهل الكلام، والذي يظهر والله أعلم أنه يعود للتائب ثواب الطاعات التي أبطلتها المعصية لوجوه :

١-للأثر المشهور : ((التائب من الذنب كمن لا ذنب له)) .

٢-ولما روي أن رجلاً سأل النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّم- عن أعمال برّ كان يتحنث بها في الجاهلية فقال له النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّم- : ((أسلمت على ما أسلفت)) أو كما قال .

٣-لأن عودها للتائب أقرب إلى المعهود من إحسان الله وفضله .

٤-للفرق الواضح بين من أطاع الله طول عمره ثم عصاه معصية كبيرة ثم تاب منها وبين من عصى الله طول عمره ثم تاب من ذلك. تمت من السيد العلامة/ محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله تعالى.

والجواب في ذلك: أنه غير مأثوم ولا مأزور، ولكنه في حكم الله مرضي مأجور، وقد أعرض سيدنا المسيح عن ذلك واشتغل بغيره فلم ينقص الترك لذلك من أجره.

وأما ما روي عن سيدنا خاتم النبيين -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعلى آله الطاهرين- من قوله: ((لا حصر بعد يحيى ولا سياحة بعد عيسى)) فإنما أراد بذلك التخفيف عن المخلوقين، و لم يرد بذلك حظر السياحة في أرض الله على السائحين.

[في العقول هل هي متساوية؟]

وسألت عن العقول هل هي مستوية أم بينها خلاف؟

والجواب: أن اختلاف عقول الناس كاختلاف قواهم، فمن كانت قوته تبلغ أداء الفرائض وجبت عليه، ومن لم يطق فلا يكلفه الله ما يعدم لديه، ولا يصل بقوته إليه.

وإنما العقول على وجوه معروفة، وأحوال بينة موصوفة؛

منها: عقول سادتنا الملائكة المقربين.

ومنها: عقول الأنبياء المرسلين، وعقول الأوصياء المستخلفين، وعقول الأئمة الطاهرين، وبعد ذلك عقول المكلفين.

فأفضل العقول عقول الملائكة الأكرمين، ثم عقول الأنبياء أكمل من عقول الأوصياء، ثم الأوصياء أكمل من الأئمة في العقول، وأفضل في الإعتقاد والقول، ثم للسابقين من الفضيلة على المقتصدين كمثل فضل الأنبياء على الوصيين، وللأئمة المقتصدين من الفضل ما لا يكون لفضلاء المؤمنين.

وأفضل الناس كلهم فضلاً، وأكملهم ديناً وعقلاً، محمد خاتم النبيين -صلوات الله عليه وعلى أهل بيته الطاهرين-.

[هل ثواب المطيع زماناً طويلاً كالمطيع زماناً يسيراً؟]

وسألت فقلت: هل يثاب من عُمِّر في طاعة الله وقتاً يسيراً كثواب من عمر في الطاعة زماناً طويلاً، وكيف يكون كمثله وتكليفه أطول كمثل نوح ومحمد صلى الله عليهما؟

والجواب في ذلك: أن أعلمهما بالله أفضلهما، وأخشاهما وأعظمهما خشية لله

أتقاهما، وأتقاهما لله أهداهما، وأهداهما إلى دين الله أحدهما، وأحد الرجلين بأجزل الثواب أولاهما، واعلم أن عقول حجج الله على قدر كلفهم، وعلى قدر منازلهم عند الله ومحنتهم.

وأما سائر المكلفين فقد اختلف القول فيهم من المتكلمين فقال قوم: إن الله ساوى بين خلقه في العقول كما ساوى بينهم في التعبد فاستعمل بعضهم عقله، وترك بعضهم النظر وأهمله، وزهد في التمييز وعطله، فأصدأ بمخالفة الله عقله، حتى صار لكثرة اللعب كمن لا يعقل.

فأما من كان مغموراً بالخبل، مطبوعاً على البلاهة والجهل، وضعف التمييز في الطبيعة والجهل، فليس يكلف الله ذلك، ولا يكون أبداً في المكابرة كذلك؛ لأنه لم يعتمد في ذلك تجاهلاً، و لم يزل عن جميع الأمور جاهلاً، و لم يكن مع الناس فهماً عاقلاً، و لم يزل عن وجوه التعبد غافلاً.

وزعم قوم آخرون أن الله خالف بين عقول العباد، ودل جميعهم على الرشاد، فذو العقل المنقوص يلحق بضعف عقله إذا سلم من الجنون، كمثل ما يلحق كامل العقل من الدين، كما أن أضعف الناس يلحق من الصلوات، وأداء جميع المفروضات، كالذي يلحق أقواهم جسداً، وأشدهم بدناً، وهذا قولهم واختلافهم.

والذي أقول أنا وأعتقد، والله الموفق والمسدد: أن من عمل على قدر عقله، وسلم من مكابرته وجهله، فهو عند الله من الناجين، ولديه إن شاء الله من المقبولين، ومن كان ضعيف العقل مغموراً بطباع الحيرة والجهل، فهو بمنزلة البهائم والأطفال، في رحمة الله الواحد المفضال.

وأما من غمر عقله باللعب والإهمال، وشبه نفسه بالبهائم في الإغفال، فهو وليس ولا كرامة من المعذورين، ولكنه عند الله من الكافرين، ولو استعمل عقله حق الإستعمال، لنال به من الخير كل المنال، ولكنه أقبل على العبث والمحال، حتى ارتطم ووقع في الضلال، وصار من أجهل الجهال، فهذا ما أعتقد وأقول، وإليه أذهب وأميل.

وأما الإختلاف والتبغيض إلى العباد، وسوء الأدب والميل إلى الفساد، والمكابرة واللجاج في الألداد، فليس ذلك من أخلاق الصالحين، ولا هو من أفعال المسلمين، ولا يجوز مقاطعة المؤمنين، إلا بكبيرة من كبائر المفسدين، إذا أقام عليها و لم ينتقل بالتوبة عنها، وقد رأيت كثيراً من المؤمنين أولياء الله المتقين، يضلون عن السبب من أسباب الدين، فينبغي للمؤمن أن لا يقاطعهم حتى يبين لهم ويرفق بهم ولا يعجل عليهم، فإن الله سبحانه لا يعذب وليه على السهو والنسيان، كما يعذب على العمد والبيان.

[الرد على الحشوية فيما زعموا على أنبياء الله من المقال]

وقد زعم بعض الحشوية أهل الضلال، الجهلة الكفرة الضُّلاّل، أن هؤلاء الجهلة لا يرجعون إلا بالإحتيال والإستدراج والنفاق والإغتيال، وأنه يجوز للإمام وغيره أن يوهمهم ويوقع في أنفسهم أنه على دينهم، حتى إذا اطمأنوا إليه وعظهم بعد أن يستميل بالتوهيم قلوبهم.

وتأولوا لعنهم الله وأخزاهم، وأضل سعيهم وأرداهم، وزادهم عمىً على عماهم، أن إبراهيم وموسى -عليهما السلام- دخلا مع قومهما في الضلال، ليخرجاهم من الفساد بالاحتيال، وزعموا أن موسى لما رأى قومه يشبهون الله قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١٤٣]، وقد علم أن الله سبحانه لا يسعده إلى ما طلب فلما لم يعطه إرادته قال لهم: يا قوم كم تطلبون رؤية الله وقد ترونه قد منعني ذلك فكيف بكم؛ فزعموا أنه ردهم بهذه الحيلة عن التشبيه.

وزعموا أن قوم إبراهيم لما عبدوا النجوم دخل معهم وقال لهم لما رأى كوكباً ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام:٧٦]، حتى يرجعوا معه إذا رجع ويصنعوا من التوبة ما صنع؛ فيا للحشوية الويل الطويل والغول والعذاب الجليل، أما سمعوا قول الله سبحانه: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر:٩٤]، وقوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء:١٤٥]، ولئن كان الأنبياء عندهم محتالين، وبالكذب للناس مغتالين، لقد جعلوهم قدوة للمنافقين، والله يقول: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل:١٠٥].

ولئن لم يرجعوا بنور الحق وبهجته، لا رجعوا بالباطل وظلمته، وضعفه وعجزه وركاكته، ولكن الحشوية عجزوا عن الحجج ونورها، فدخلوا في أبواب النفاق وزورها.

وإنما يدعى الناس بلين المراجعة في المقال، ويبين لهم فساد ما يعتقدون من المحال، ويوضح لهم ما هم عليه من الضلال، فإن أقبلوا إلى الحق ورجعوا، وصاروا إلى المؤمنين وأجمعوا، وإلا رفضوا صاغرين وقطعوا.

فيالعباد الله أترون موسى كان غبياً جاهلاً، وكان عن حجج المعقول غافلاً، حتى يقول لهم إن الأبصار لا تبلغ ولا تقع، إلا على ما يفترق من الأشياء ويجتمع، ولا ينظر بالعيان وبالأبصار، إلا ما كان في قطر من الأقطار، وما حوته الأقطار، وأدركته وعاينته الأبصار، فهو أصغر من محله وموضعه، وأقل من مهبطه ومطلعه، وما كان من الأشياء صغيراً منقوصاً، وكان بالنقص والصغر مخصوصاً، فلا بد له من صانع نقصه وأصغره، وقطع نهايته وبتره؛ فاتقوا الله يا قوم وذروا منكم التجاهل، والجنون والخبل والتغافل، وإلا فإني بريء إلى الله منكم، ومهاجر في أرض الله عنكم.

وكذلك الخليل -صلوات الله عليه- فقد كان غير غبي بالجدال، ولا حَصِرٍ بمخاصمة أهل المحال، أفهو عاجز عن أن يقول إن النجوم لا تنفك عن الحركات والمسير، والإضطرار على الحركة يدل على التسخير، مع ما فيها من عجائب التقدير، وآثار الحكمة والتدبير، وإلا فما الذي خالف بين ألوانها وهيئاتها، وفرق بين أجسامها وحركاتها، لو كانت يا قوم قديمة لاتفقت، ولما تباينت ولا اختلفت، فاتقوا الله يا قوم وخافوه، ولا تغفلوا ذكر الموت وراقبوه.

ولكن أعداء الله حسبوا وتوهموا، وتجاهلوا عن الحق فلم يعلموا، أن غضب أولياء الله لربهم أكثر من غضبهم لأنفسهم، أو ليس قد حكى الله في القرآن مجادلتهم للفراعنة الجبارين، العتاة الطغاة المتكبرين، فكيف بضعفة الإسرائيليين وغيرهم من المسكنة الضالين، وهل كانوا يضنون بأنفسهم عن طاعة رب العالمين.

وقد حكى الله عن نبيه إبراهيم من العزيمة ما ألقي لأجله في الجحيم فنجاه برحمته من

كيد الكائدين، وكذلك يجزي الله المحسنين، وأمره الله وامتحنه وابتلاه ومحصه واختبره بالعزيمة على ذبح ولده و لم يرد الله غير عزيمته، ولكنه لم يدر -عَلَيْه السَّلام- بقصد الله وإرادته، فقام -عَلَيْه السَّلام- بولده، ومهجة قلبه، وثمرة فؤاده ونفسه، ليفري أوداجه ذبحاً، طاعة لله ومسارعةً ونصحاً، مع ما هو عليه من شفقته، وكرم طباعه ورحمته، وحسن أخلاقه ومروءته، فما منعه ذلك من طرح ولده على وجه الأرض وصرعه، وعزيمته على تلفه وقطعه، وتركه يخر جبين ولده على حضيض التراب ووضعه، فلما رأى الله منه ما رأى، وإذ لا شك عنده في طاعة الله ولا امتراء، وأظهر من أمره وفضله ما كان مستوراً، أمره حينئذ بأن لا يذبح ولده، بعد ما أظهر سبحانه بهذه المحنة صبره وجَلَده، و لم يعلم -صَلَّى الله عَلَيْه- بإرادة الله فيما أوحى إليه.

وكذلك فعل بقومه وأبيه، بعد احتجاجه ولطفه وتأنيه، واستغفاره لوالده خوفاً من أن يكون من الضالين، ورجاء أن لا يكون من المتعمدين، احتياطاً منه لطلب الأمان، وخوفاً من العذاب والنيران، ﴿**فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ(١١٤)**﴾ [التوبة]، والأواه فهو المتأوه الحزين، والتأوه في ذاته فهو الأنين، والزفير والأحزان والحنين، لما دخل قلبه من خالص اليقين، ولما عرف من الحق المبين؛ فلما امتلأ قلبه نوراً وصار بذكر الله ومعرفته معموراً، حزن على نفسه عند ذلك من ذكر الموت والعذاب، وأقبل على الدين والحق والصواب، ونقّى قلبه وطهره من اللعب، وسلا عن التصابي والجهل والطرب.

[جلاء القلوب من العيوب]

و لم أر شيئاً أجلى للقلوب من العدل والتوحيد، ومعرفة الوعد والوعيد، وتلاوة القرآن، وكثرة الدعاء إلى الرحمن، فمن أراد أن ينجو عند الله من العذاب، ويسدد إلى طريق الصواب، فيتحرز من الكبر والإعجاب، ويحتسب نفسه أذل من التراب؛ فإن الله عز وجل نهى عن التكبر لما فيه من أصناف العيوب؛ لأنه أحد متالف القلوب.

وكيف يتكبر من هو ضعيف رَذِل، منقوص في جميع الأحوال نذل، وكيف يعجب

بنفس تزول عن قليل محاسنها، ويكثر وشيكاً عوائلها وحزنها، مع ما يستر دائماً من عيوبه، ويحمله على مقارنه وقرينه، إلا أن يكون قد أعجب بنفسه لكثير عمله، فهو يعلم أن حقوق الله أكثر من فعله، وأن عمله لا يقوم بنعمة من نعم مولاه، ولا بشربة ماء مما سقاه، ولا بشفاء مرضة مما شفاه، ولا بعافية ساعة مما عافاه.

وأيضاً فإن الإنسان كثير الذنوب، قبيح الفعل كثير العيوب، وإن كان يعجب بشبابه فكيف يعجب بشباب يصير إلى الهرم، إن سلم أحد اليومين من الموت والسقم، والمصير إلى التفرق والعدم.

وإن كان يعجب بشجاعته، فكيف يعجب ويله لجرأته، وهو يضعف عن القملة لعجز بنيته، حتى ربما شغلته ومنعته من الفكر وقطعته.

وإن كان يعجب بنفسه لكثرة علمه وجودة تمييزه وفهمه، فكيف يعجب بنفس تجهل أكثر مما علمت، ولا تدري متى يحل بها ما كرهت، ولو علمت كل علم في الدنيا لما سلمت، وأن العلم يزول إذا عطبت.

فأول من فخر وأعجب بنفسه واستكبر، إبليس الكافر النجس الرجس، فمن اقتدى به فقد فعل فعله، وصار بذلك في حكم الله مثله، وذلك أنه فخر بالنار على الطين، وذلك فليس من فعل اللعين، وإنما فخر بالنار لحدتها وضرامتها، وعلوها في الأهوية وخفتها، وما هي عليه من قوة بنيتها، وذلك فإنما هو فعل الله لا فعله، وتقدير الله لا تقديره وحكمته وفضله.

فأما العباد فخيرهم أكرمهم طباعاً، وأسبقهم إلى طاعة الله إسراعاً، لا ينظر في الخيرة إلا إلى أفعالهم، ولا يفضلون بغير أعمالهم.

وقد رأينا من الناس من يتكبر على الجهل وهو لا يعلم، ويحمله الكبر أن لا يقول الله أعلم، ولو قتل الإنسان نفسه في طلب العلم قتلاً، لما برح ولا زال مع معرفته جاهلاً؛ فاحفظوا رحمكم الله وافهموا ولا تغفلوا عن ذلك، واعلموا أن الله سبحانه نقص العباد بأنواع من الشرور، لما في نقصهم من عجائب الأمور، ولو أتمهم وأكملهم وأغناهم، و لم

يرهم من النقص والعيوب ما أراهم، لعظم هلاكهم وعتاهم، ولقتلهم حب الدنيا وأطغاهم، ولكنه جاد عليهم بما كفاهم، ثم زجرهم ونهاهم بعد أن بصرهم هداهم، وبين لهم فجورهم وتقواهم.

[في تكليم الله لموسى (ع) والرد على الحشوية]

وسألت عن الكلام الذي سمعه موسى -عَلَيْه السَّلام-، وذكرت أن الحشوية قالوا: إن زعمنا أن الله كلمه دخلنا في مذهبهم، وإن زعمنا أن الكلام هو الذي قال لموسى أنا ربك فقد عبدنا الكلام بزعمهم؟

فقل للحشوية: إن كانوا يعقلون وكانوا ينصفون عقولهم أو يفهمون، أن الكلام ليس بخالق فيدعي الربوبية، وإنما هو عرض أوجده الله وأوصله، وخلقه في الشجرة وفعله، وخاطب نبيه به وفصله، وأما مذهبكم فلا نرجع إليه، ولا نفتري على الله كما افتريتم عليه.

ثم يقال لهم: أخبرونا عن الكلام الذي زعمتم أنه قديم وأنه صفة قديمة للواحد الكريم، أهو مثل معبودكم فيكون معبودكم جزئين، وتبطل وحدانيته إذ صار نصفين، لا سيما إذا كان هو والقرآن مثلين.

أم تقولون إنه أفضل من القرآن باللسان والشفتين، فتشبهون الله بغيره من المخلوقين، كما لم تزالوا لذلك معتقدين.

فإن كان معبودكم على ذلك، وكان في الصفات المحدثة كذلك، فلا بد له من صانع خالف بين شفتيه ولسانه، وغاير بين حنكه وأسنانه، وكذلك لا بد له من صانع خالف بين صوته وجثمانه، لأن الصوت لا يخرج إلا من الجثمان، ولا يفرق بين الحروف إلا بالنسمة والجنان، والحنك والشفتين والأسنان، وإذا كان كذلك فلا فرق بينه وبين الإنسان.

ويقال لهم أيضاً: إن معبودهم جالس على كرسيه وعرشه، وأنه يسكن عليه بعد حركاته وبطشه، أليس معبودهم يباشر السرير بأسفله، ويباشر الهواء بأعلاه وأوله، فما

الذي فرق بين أعلاه وأسفله، وغاير بين مُدْبِره ومُقْبِله، فلن يجد المشركون إن شـــاء الله تعالى جواباً، ولن يملكوا بعد هذا القول خطاباً؛ فزاد الله قلوبهم عمـــاً وجهـــلاً، وغيـــاً وضلالةً وخبلاً؛ فلقد عموا ويلهم عن أعظم الأشياء وأجلها، وانتقصوا أعظم الموجودات وأكملها، وعبدوا غير الله بزعمهم.

وما أرأى للإمام بعد عرض التوبة غير قتلهم، والتقرب إلى الله بتلفهم؛ لأنهم بمنزلـــة عباد الأصنام، وغيرهم من كفرة الأنام، إلا أنهم قد زادوا على شرك المشركين، بقذفهم وشتمهم لرب العالمين، وعداوتهم لخاتم النبيين، وذريته الأخيار الطاهرين، صلـــوات الله عليهم أجمعين، ولعنة الله على الظالمين، والحمد لله رب العالمين، وصلواته على رسوله سيد المرسلين وأهل بيته الصادقين.

تم الكتاب بِمَنِّ الله وفضله.



وقال -عَلَيْه السَّلام- في :

كتاب السبيلين العقل والنفس[١]

الحمد لله الذي فرق بين الأضداد..إلى قوله: والحق والباطل طريقان، وسبيلان مفترقان، وهما العقل والنفس؛ فالعقل محل كل صدق وصيانة، ومعدن كل حق وأمانة، والنفس محل كل باطل وخيانة، ومعدن كل دناءة ومجانة.

..إلى قوله: فاجعلوها رحمكم الله تابعةً للعقل ولا تجعلوها سلماً إلى الجهل، وحكموا العقول عليها، ولا تنكلوا أبداً إليها، ومن أراد أن يظفر بأعظم الكرامة، ويحل في محل السلامة، وينجو من الحسرة والندامة، فليحكم عقله على هواه، ويؤثر آخرته على دنياه، فالعقل إمام الملائكة المقربين، والأنبياء المهتدين، والأئمة الراشدين، وأتباعهم المقتدين، وهو الدليل على رب العالمين، وحجة على المخلوقين..إلى آخر كلامه -عَلَيْه السَّلام-.

---

[١] - من النسخة (ح).